تقاربهما نشأ بفعل التاريخ والجغرافيا :

مستقبل العلاقة بين مصر والسودان !

فولتير عبارة شهيرة يقول فيها : "إن بعض المؤرخين يهتم بالحروب والمعاهدات. ولكنني بعد قراءة وصف ما بين ثلاثة أو أربعة آلاف معركة، وبضع مئات من المعاهدات لم أجد نفسي بعدها أكثر حكمة مما كنت قبلها؛ حيث لم أتعرف إلا على مجرد حوادث لا تستحق عناء المعرفة". إن هذه المقولة لا تسري على كتاب الدكتور عبد الوهاب "الشخصيتان المصرية والسودانية: جذور حضارية وأبعاد تاريخية" الصادر عن دار القلم هذا العام. فلا شك أن فولتير يقصد بمقولته هذه أن يبين لنا كيف ينبغي كتابة التاريخ من خلال التفسير الكلي لوقائعه؛ لأن وقائع وأحداث التاريخ تظل بلا قيمة في حد ذاتها إن لم نستخلص منها الدروس والعبر كما فعل ابن خلدون قديمًا، وكما يفعل كبار المؤرخين إلى يومنا هذا. فالمؤرخ الحقيقي هو المؤرخ الذي يقف أمام وقائع التاريخ متسائلاً: ما الذي يعنيه كل هذا ؟ ولا شك أن المؤرخ بإثارته لهذا السؤال لا يريد أن يهمل وقائع التاريخ بأن يتعالى عليها ولا يهتم بطرائق توثيقها والتحقق منها، كما أنه لا يريد أن يفرض رؤيته وتصوراته الخاصة على التاريخ أو يبحث لها تعسفيًا عن وقائع تخدمها، بل هو يريد قراءتها وتأويلها بعد التحقق منها. وهذا التأويل ينطوي على عملية مزدوجة: قراءة وفهم الواقعة التاريخية في سياق عصرها وزمانها، وقراءتها من خلال منظور اللحظة التاريخية التي يحياها المؤرخ (بهدف فهم وتفسير اللحظة الراهنة باعتبارها نتاجًا لتراكم لحظات سابقة). والمؤرخ بهذا المعنى يقرأ الماضي والحاضر معًا: فهو يقرأ الحاضر في الماضي، ويستضيء بالحاضر في فهم الماضي. وهذا هو ما يفعله الدكتور عبد الوهاب أحمد في كتابه عن الشخصيتين المصرية والسودانية، وهو يقع في ثلاثمائة وعشرين صفحة، ويتناول الفصل الأول منه "الجذور التاريخية للعلاقات المصرية- السودانية"، ويتناول الفصل الثاني "الأبعاد التاريخية للشخصية المصرية"، ويتناول الفصل الثالث "الأبعاد التاريخية للشخصية السودانية"، أما الفصل الربع والأخير فيتناول "إيجابيات وسلبيات الشخصيتين المصرية والسودانية".

●●●

ومما يزيد من أهمية هذا الكتاب أن صاحبه سوداني الجنسية، فضلاً عن كونه أستاذًا في التاريخ. حقًا إن أهمية الكتب لا تقاس بجنسية أصحابها، ولكن الأمر هنا مختلف: ذلك أننا قد تعودنا أن نسمع عن العلاقات المصرية السودانية من خلال الكتابات المصرية التي غلب على أكثرها الطابع الصحفي والسياسي والدعائي الذي يرفع الشعارات أو توجهه العواطف والأهواء. وأظن أنه قد آن الأوان لنسمع صوت الآخر، خاصة إذا كان صوتًا لا توجهه العواطف أو الحساسيات، وليس مدفوعًا بأغراض سياسية، وإنما يوجهه الصالح العام للبلدين الشقيقين حقًا، ويسعى إلى تأسيس هذا الصالح العام على دراسة علمية جادة تحاول فهم الشخصيتين المصرية والسودانية في ضوء الجذور والثوابت والتحولات التاريخية والاجتماعية لكل منهما. وربما يكون هذا هو السبب في أن الجانب الخاص بالجذور التاريخية والحضارية للعلاقات المصرية السودانية قد تضخم نسبيًا في هذا الكتاب. وربما تتبدى أيضًا أهمية الكتاب في المرحلة الراهنة بوجه خاص؛ لأنها المرحلة التي بدا يلوح فيها التطلع إلى تجاوز الوضع الشائك في العلاقات المصرية السودانية الذي كاد أن يترسخ بفعل وقائع تاريخية وسياسية متراكمة.

وبوجه عام يمكن القول إن هذا الكتاب يمثل محاولة علمية جادة لرصد ملامح الشخصيتين المصرية والسودانية بالكشف عن الثوابت فيهما،

د. سعيد توفيق

وتتبع التغيرات أو التحولات التي طرأت على كل منهما، استنادًا إلى رؤية تمزج بين البعد الاجتماعي والبعد الحضاري التاريخي، بأن تسعى إلى تأصيل البعد الأول في الأخير. وهذا هو ما سنحاول بدورنا أن نظهره من خلال استخلاص النقاط الجوهرية في مضمون الكتاب وليس من خلال تتبع تفاصيله والاكتفاء بمجرد تلخيصها وعرضها واحدة تلو الأخرى. ويمكن استخلاص هذه النقاط الجوهرية على النحو التالي:

١- إن هناك توافقًا وتشابهًا بين الشعبين المصري والسوداني يندر وجوده بين قطرين آخرين، وتلك حقيقة يدركها جيدًا أبناء الشعبين حتى وإن كان بطريقة لاشعورية تعبر عن نفسها من خلال الإحساس بالألفة المتبادلة. والتشابه في الملامح الذي يزداد كلما توغلنا في جنوب مصر، والطبائع المشتركة التي تتجلى في الميل إلى التدين، والمحافظة على الموروث، والتمسك بنمط الحياة التقليدية، والاهتمام بالمجاملات والتكافل الاجتماعي، والترابط الأسري والعائلي، وقد بلغ هذا التقارب والتداخل بين الشعبين إلى حد المصاهرة بينهما.

٢- ولا شك أن هذا التقارب والتداخل بين سمات الشخصيتين المصرية والسودانية قد نشأ بفعل التاريخ والجغرافيا والعلاقات الاقتصادية والثقافية بين البلدين على مر العصور. فالعلاقات بين مصر والسودان قديمة قدم التاريخ، والأحداث التي مرت بها مصر قد انعكست على السودان بصورة مباشرة سلبًا كان ذلك أم إيجابًا: فقد كانت مصر دائمًا مصدر التأثير الديني والثقافي على السودان، ليس فقط لأنها البوابة الرئيسية لدخول المسيحية اليعقوبية ومن بعدها الإسلام إلى السودان، بل لأنها كانت من قبل مصدر العقائد والأديان التي انتقلت إلى بلاد كوش السودانية وآمن بها ملوك وشعوب هذه البلاد، حتى إنه لم يكن هناك إله يعبد في مصر إلا وكان يعبد في بلاد كوش. وفضلاً عن ذلك كانت هناك حركة تجارية متبادلة على مر العصور، وقد استغل المصريون القدماء مناجم الذهب الواقعة في الصحراء الشرقية لبلاد النوبة. كما كان النوبيون يعملون في الجيش والشرطة في مصر القديمة، ودافعوا مع المصريين ضد الهكسوس، فكانت بلاد النوبة جزءًا من المملكة المصرية (التي اعتبرت حدود الدولة المصرية حتى الشلال الثاني)، مما جعل هذه البلاد تذوب في مصر القديمة إلى حد أفقدها شخصيتها الثقافية والحضارية الخاصة، حتى إنه ليقال أن تاريخ النوبة ما هو إلا تاريخ لاتصالها وانعزالها عن مصر.

٣- إن هذا التداخل الشديد في تكوين الشخصيتين المصرية والسودانية هو ما يفسر لنا الاختلاف حول أصل المصريين القدماء أنفسهم: فقيل أنهم زنوج استقروا أولاً في السودان على شواطئ النيل الأوسط، ثم نزحوا تدريجيًا مع النهر نحو البحر. وقيل أن النوبيين أصلهم مصريون حملوا الحضارة والعقائد المصرية إلى الجنوب، وقيل أنهم جالية جنوبية نزحت إلى شمال الوادي. غير أن الرأي المؤكد هو أنهما ينتسبان إلى أصل واحد، وأن جنوب مصر الأقرب في طبيعته إلى السودان هو معقل الحضارة المصرية، ولم تحمل التاريخ المصري إلا في العصر المتأخر. وقد أثبتت البحوث والدراسات العلمية أنه لا فرق بين المصري القديم والنوبي في التكوين الجسماني، إذ حدث الاختلاط بينهم منذ فجر التاريخ. وكل هذا جعل نظرة المصريين للسودان لا تختلف عن نظرتهم لأي إقليم من أقاليم مصر كما يقول الدكتور عبد الوهاب أحمد: "إذ كانوا ولا زالوا ينظرون لبلاد النوبة خاصة والسودان عامة على أنها جزء لا يتجزأ من مصر" (ص. ٣٢).

٤- إن التداخل الشديد بين سمات الشخصيتين المصرية والسودانية لا ينبغي أن يلغي أو ينسينا خصوصية الشخصية السودانية التي عبرت عن نفسها في إنجازات حضارة جنوب الوادي التي تخص بلاد النوبة، مثل: حضارة كرمة التي ازدهرت في الفترة ما بين (٢٣٠٠ - ١٤٠٠) ق.م. وحضارة بلاد كوش في مملكتي نبتة ومروي فيما بين (٧٥٠- ٣٥٠) ق.م. وهي الحضارة التي بلغت أوجها في عهد ملوك بلادها الأشداء - من أمثال بيعنخي وتهارقا - الذين حكموا مصر وأعلنوا أنفسهم ملوكًا على الشمال والجنوب. حقًا أن هؤلاء الملوك لم يحكموا مصر كغزاة، وإنما كمناصرين لحضارة مصر القديمة، ومدافعين عنها ضد الغزاة، وكانوا يدينون بآلهتها ويتبنون ثقافتها. وحقًا أيضًا أن فترات حكم بلاد كوش لمصر - بل فترة حضارة بلاد كوش في مجملها - تعد ضئيلة إذا ما قورنت بعمر الحضارة المصرية القديمة، وهو ما يعني أن تأثير شمال الوادي (ممثلاً في مصر) على جنوبه (ممثلاً في السودان) ظل هو التأثير الأقوى. إلا أن هذا لا ينفي أن حضارة جنوب الوادي - وخاصة حضارة بلاد كوش - كانت وليدة بيئتها ومتأثرة بطبيعتها الجغرافية، وكانت تنزع دائمًا إلى تأكيد أصلها الزنجي؛ ومن ثم إلى الكشف عن ارتباط السودان بالعمق الأفريقي. إن هذا الجذر الأفريقي/الزنجي ماثل في وعي الشخصية السودانية تأكيدًا لخصوصيتها، وهو وعي يعبر عن نفسه في الإبداع الأدبي كما جاء في قصيدة الشاعر السوداني المبدع محمد الفيتوري التي تحمل عنوان "أنا زنجي"، والتي اقتبس الدكتور عبد الوهاب أحمد بعضًا من أبياتها التالية:

قلها لا تجبن
قلها في وجه البشرية
أنا زنجي
وأبي زنجي الجد
وأمي زنجية
أنا أسود
أسود لكني حر أمتلك الحرية
أرضي أفريقية
عاشت أرضي
عاشت أفريقية

٥- إن خصوصية الشخصية السودانية لا تحددها العوامل التاريخية فحسب، وإنما تحددها أيضًا العوامل الجغرافية: فإذا كان الموقع الجغرافي الاستراتيجي لمصر قد أسهم في صنع وحدتها الطبيعية، ووحدتها السياسية، وأدى إلى نمو الشعور بالذات لدى المصريين القدماء والمحدثين، وإلى قيام فكرة الدولة القائمة على السلطة المركزية: فإن جغرافية السودان كان لها تأثير مغاير على الشخصية السودانية. كما تضافرت بعض العوامل التاريخية مع الجغرافيا في خلق هذا التأثير الخاص الذي منه ما هو سلبي ومنه ما هو إيجابي: فبخلاف مصر، لم يكن موقع السودان متجانسًا، ولم يصهر سكانه في بوتقة الوطن الواحد الموحد. فالمساحات الشاسعة المترامية الأطراف والمتباينة في طبيعتها الجغرافية، جعلت السودان يشبه "أفريقيا مصغرة". كما أن انقسام السودان لأقاليم وممالك متباينة في العادات والتقاليد، فضلاً عن تعرضه لهجرات الكثير من القبائل المتباينة في أصولها التي تتراوح بين العنصر الزنجي والعنصر العربي - كل ذلك كان له تأثير واضح على التركيبة العرقية المعقدة في السودان، وإلى إلحاح التساؤل عن مفهوم الهوية السودانية وعن معنى القومية في السودان. ومع ذلك، فإن هذا الطابع الذي ميز السودان لا يخلو من قيمة إيجابية يمكن أن نستشفها هنا: فلا شك أن هذا الطابع قد عمل على تحرر الشخصية السودانية من بعض آفات الشخصية المصرية مثل: تقديس السلطة المركزية، وبيروقراطية الإدارة، وما استتبع ذلك من تدهور لحق بالشخصية المصرية مؤخرًا ممثلاً في تسلط الموظف وتملقه للسلطة الأعلى في نفس الوقت، وعدم الصراحة أو المجاهرة بالرأي خاصة في مجال السياسة... إلخ. وربما يتبدى هذا الأمر لمن يعرف السودان عن قرب في ولع السودانيين (وخاصة الشباب منهم) بالكلام في السياسة والتعلق بالحياة الحزبية التعددية في حماس منقطع النظير رغم الظروف الاقتصادية الطاحنة في السودان؛ وهي ظاهرة صحية في حد ذاتها إذا تخلصت من طابعها الكلامي والخطابي، وبلغت مرحلة النضج السياسي الذي يهدف إلى التأثير والفاعلية في مجال الواقع. كما يمكن القول إن التباين أو التنوع العرقي والثقافي والاجتماعي في الشخصية السودانية ليس شرًا في حد ذاته، بل يمكن أن يتحول إلى قيمة إيجابية إذا صدقت النوايا بالعمل على الحفاظ على وحدة السودان من خلال تحقيق مبدأ "الوحدة في التنوع" الذي يمكن أن يصب في مصلحة الجميع.

٦- رغم ما بين الشخصيتين المصرية والسودانية من إلف وتقارب في الطباع، إلا أن الشخصية السودانية تتميز بحساسية مفرطة ومعقدة إزاء الشخصية المصرية، وهذا الأمر يجب وضعه دائمًا في الاعتبار، والعمل على مداوته وتجاوزه حين النظر في العلاقات المصرية السودانية وأخذها مأخذ الجد. إن السودانيين - كما يلاحظ الدكتور عبد الوهاب أحمد "أكثر حساسية تجاه نقد الآخرين لا سيما عندما يكون الناقد مصريًا" (ص. ٢٨٩). غير أن هناك عوامل موضوعية تبرر هذه الحساسية السودانية، وهي عوامل يمكن أن نستشفها من هذا الكتاب الذي نعرض له، ومن غيره. ولعل أهم هذه العوامل أن مصر في العصر الحديث - منذ عصر محمد علي وحتى فترة الثورة - ظلت تنظر

مستقبل العلاقة بين مصر والسودان؟

د. سعيد توفيق

لفولتير عبارة شهيرة يقول فيها : " إن بعض المؤرخين يهتم بالحروب والمعاهدات، ولكنى بعد قراءة وصف ما بين ثلاثة أو أربعة آلاف معركة، وبضع مئات من المعاهدات لم أجد نفسى بعدها أكثر حكمة مما كنت قبلها ؛ حيث لم أتعرف إلا على مجرد حوادث لا تستحق عناء المعرفة " . إن هذه المقولة لا تسرى على كتاب الدكتور عبد الوهاب " الشخصيتان المصرية والسودانية : جذور حضارية وأبعاد تاريخية " الصادر عن دار القلم هذا العام . فلا شك أن فولتير يقصد بمقولته هذه أن يبين لنا كيف ينبغى كتابة التاريخ من خلال التفسير الكلى لوقائعه؛ لأن وقائع وأحداث التاريخ تظل بلا قيمة فى حد ذاتها إن لم تستخلص منها الدروس والعِبَر كما فعل ابن خلدون قديمًا، وكما يفعل كبار المؤرخين إلى يومنا هذا . فالمؤرخ الحقيقى هو المؤرخ الذى يقف أمام وقائع التاريخ متسائلاً : ما الذى يعنيه كل هذا ؟ ولا شك أن المؤرخ بإثارته لهذا السؤال لا يريد أن يهمل وقائع التاريخ بأن يتعالى عليها ولا يهتم بطرائق توثيقها والتحقق منها، كما أنه لا يريد أن يفرض رؤيته وتصوراته الخاصة على التاريخ أو يبحث لها تعسفيًا عن وقائع تخدمها، بل هو يريد قراءتها وتأويلها بعد التحقق منها . وهذا التأويل ينطوى على عملية مزدوجة: قراءة وفهم الواقعة التاريخية فى سياق عصرها وزمانها، وقراءتها من خلال منظور اللحظة التاريخية التى يحياها المؤرخ (بهدف فهم وتفسير اللحظة الراهنة باعتبارها نتاجًا لتراكم لحظات سابقة) . والمؤرخ بهذا المعنى يقرأ الماضى والحاضر معًا : فهو يقرأ الحاضر فى الماضى، ويستضىء بالحاضر فى فهم الماضى . وهذا هو ما يفعله الدكتور عبد الوهاب أحمد فى كتابه عن الشخصيتين المصرية والسودانية، وهويقع فى ثلاثمائة وعشرين صفحة، ويتناول الفصل الأول منه " الجذور التاريخية للعلاقات المصرية– السودانية"، ويتناول الفصل الثانى " الأبعاد التاريخية للشخصية المصرية"، ويتناول الفصل الثالث "الأبعاد التاريخية للشخصية السودانية"، أما الفصل الربع والأخير فيتناول "إيجابيات وسلبيات الشخصيتين المصرية والسودانية" .

●●●

ومما يزيد من أهمية هذا الكتاب أن صاحبه وتتبع المتغيرات أو التحولات التى طرأت على كل منهما، استنادًا إلى رؤية تمزج بين البعد الاجتماعى والبعد الحضارى التاريخى، بأن تسعى إلى تأصيل البعد الأول فى الأخير . وهذا هو ما سنحاول بدورنا أن نظهره من خلال استخلاص النقاط الجوهرية فى مضمون الكتاب، وليس من خلال تتبع تفاصيله والاكتفاء بمجرد تلخيصها وعرضها واحدة تلو الأخرى . ويمكن استخلاص هذه النقاط الجوهرية على النحو التالى:

١- إن هناك توافقًا وتشابهًا بين الشعبين المصرى والسودانى يندر وجوده بين قطرين آخرين، وتلك حقيقة يدركها جيدًا أبناء الشعبين حتى وإن كان بطريقة لاشعورية تعبر عن نفسها من خلال الإحساس بالألفة المتبادلة، والتشابه فى الملامح الذى يزداد كلما توغلنا فى جنوب مصر، والطبائع المشتركة التى تتجلى فى الميل إلى التدين، والمحافظة على الموروث، والتمسك بنمط الحياة التقليدية، والاهتمام بالمجاملات والتكافل الاجتماعى، والترابط الأسرى والعائلى، وقد بلغ هذا التقارب والتداخل بين الشعبين إلى حد المصاهرة بينهما.

٢- ولا شك أن هذا التقارب والتداخل بين سمات الشخصيتين المصرية والسودانية قد نشأ بفعل التاريخ والجغرافيا والعلاقات الاقتصادية والثقافية بين البلدين على مر العصور : فالعلاقات بين مصر والسودان قديمة قدم التاريخ، والأحداث التى مرت بها مصر قد انعكست على السودان بصورة مباشرة سلبًا كان ذلك أم إيجابًا : فقد كانت مصر دائمًا مصدر التأثير الدينى والثقافى على السودان، ليس فقط لأنها البوابة الرئيسية لدخول المسيحية اليعقوبية ومن بعدها الإسلام إلى السودان، بل لأنها كانت من قبل مصدر العقائد والأديان التى انتقلت إلى بلاد كوش السودانية وآمن بها ملوك وشعوب هذه البلاد، حتى إنه لم يكن هناك إله يعبد فى مصر إلا وكان يعبد فى بلاد كوش . وفضلاً عن ذلك كانت هناك حركة تجارية متبادلة على مر العصور، وقد استغل المصريون القدماء مناجم الذهب الواقعة فى الصحراء الشرقية لبلاد النوبة . كما كان النوبيون يعملون فى الجيش والشرطة فى مصر القديمة، ودافعوا مع المصريين ضد إلى السودان هو معقل الحضارة المصرية، ولم تدخل الدلتا التاريخ المصرى إلا فى العصر المتأخر . وقد أثبتت البحوث والدراسات العلمية أنه لا فرق بين المصرى القديم والنوبى فى التكوين الجسمانى، إذ حدث الاختلاط بينهم منذ فجر التاريخ . وكل هذا جعل نظرة المصريين للسودان لا تختلف عن نظرتهم لأى أقليم من أقاليم مصر كما يقول الدكتور عبد الوهاب أحمد ؛ " إذ كانوا ولا زالوا ينظرون لبلاد النوبة خاصة والسودان عامة على أنها جزء لا يتجزأ من مصر " (ص. ٣٢) .

٤- إن التداخل الشديد بين سمات الشخصيتين المصرية والسودانية لا ينبغى أن يلغى أو ينسينا خصوصية الشخصية السودانية التى عبرت عن نفسها فى إنجازات حضارة جنوب الوادى التى تخص بلاد النوبة، مثل : حضارة كرمة التى ازدهرت فى الفترة ما بين (٢٣٠٠ -١٤٠٠)ق.م، وحضارة بلاد كوش فى مملكتى نبتة ومروى فيما بين (٧٥٠- ٣٥٠) ق.م، وهى الحضارة التى بلغت أوجها فى عهد ملوك بلادها الأشداء – من أمثال بيعنخى وتهارقا – الذين حكموا مصر وأعلنوا أنفسهم ملوكًا على الشمال والجنوب . حقًا أن هؤلاء الملوك لم يحكموا مصر كغزاة، وإنما كمناصرين لحضارة مصر القديمة، ومدافعين عنها ضد الغزاة، وكانوا يدينون بالهتها ويتبنون ثقافتها . وحقًا ايضا أن فترات حكم بلاد كوش لمصر – بل فترة حضارة بلاد كوش فى مجملها – تعد ضئيلة إذا ما قورنت بعمر الحضارة المصرية القديمة، وهو ما يعنى أن تأثير شمال الوادى (ممثلاً فى مصر) على جنوبه (ممثلاً فى السودان) ظل هو التأثير الأقوى . إلا أن هذا لا ينفى أن حضارة جنوب الوادى _ وخاصة حضارة بلاد كوش _ كانت وليدة بيئتها ومتأثرة بطبيعتها الجغرافية، وكانت تنزع دائمًا إلى تأكيد أصلها الزنجى ؛ ومن ثم إلى الكشف عن ارتباط السودان بالعمق الأفريقى . إن هذا الجذر الأفريقى/الزنجى ماثل فى وعى الشخصية السودانية تأكيدًا لخصوصيتها، وهو وعى يعبر عن نفسه فى الإبداع الأدبى كما جاء فى قصيدة الشاعر السودانى المبدع محمد الفيتورى التى تحمل عنوان " أنا زنجى"، والتى اقتبس الدكتور عبد الوهاب أحمد بعضًا من أبياتها التالية :

قلها لا تجبن
قلها فى وجه البشرية
أنا زنجى
وأبى زنجى الجد
وأمى زنجية
أنا أسود
أسود لكنى حر امتلك الحرية
أرضى أفريقية
عاشت أرضى
عاشت أفريقية

٥- إن خصوصية الشخصية السودانية لا تحددها العوامل التاريخية فحسب، وإنما تحددها أيضًا العوامل الجغرافية . فإذا كان الموقع الجغرافى الاستراتيجى لمصر قد أسهم فى صنع وحدتها الطبيعية، ووحدتها السياسية، وأدى إلى نمو الشعور بالذات لدى المصريين القدماء والمحدثين، وإلى قيام فكرة الدولة القائمة على السلطة المركزية ؛ فإن جغرافية السودان كان لها تأثير مغاير على الشخصية السودانية . كما تضافرت بعض العوامل التاريخية مع الجغرافيا فى خلق هذا التأثير الخاص الذى منه ما هو سلبى ومنه ماهو إيجابى : فبخلاف مصر، لم يكن موقع السودان متجانسًا، ولم يصهر سكانه فى بوتقة الوطن الواحد الموحد . فالمساحات الشاسعة المترامية الأطراف والمتباينة فى طبيعتها الجغرافية، جعلت السودان يشبه " أفريقيا مصغرة" . كما أن انقسام السودان لأقاليم وممالك متباينة فى العادات والتقاليد، فضلاً عن تعرضه لهجرات الكثير من القبائل المتباينة فى أصولها التى تتراوح بين العنصر الزنجى والعنصر العربى _ كل ذلك كان له تأثير واضح على التركيبة العرقية المعقدة فى السودان، وإلى إلحاح التساؤل عن مفهوم الهوية السودانية وعن معنى القومية فى السودان . ومع ذلك، فإن هذا الطابع الذى ميز السودان لا يخلو من قيمة إيجابية يمكن أن نستشفها هنا : فلا شك أن هذا الطابع قد عمل على تحرر الشخصية السودانية من بعض آفات الشخصية المصرية مثل : تقديس السلطة المركزية، وبيروقراطية الإدارة، وما استتبع ذلك من تدهور لحق بالشخصية المصرية مؤخرًا ممثلاً فى تسلط الموظف وتملقه للسلطة الأعلى فى نفس الوقت، وعدم الصراحة أو المجاهرة بالرأى خاصة فى مجال السياسة ... إلخ . وربما يتبدى هذا الأمر لمن يعرف السودان عن قرب فى ولع السودانيين (وخاصة الشباب منهم) بالكلام فى السياسة والتعلق بالحياة الحزبية التعددية فى حماس منقطع النظير رغم الظروف الاقتصادية الطاحنة فى السودان ؛ وهى ظاهرة صحية فى

على عملية مردوجة: قراءة وفهم الواقعة التاريخية فى سياق عصرها وزمانها، وقراءتها من خلال منظور اللحظة التاريخية التى يحياها المؤرخ (بهدف فهم وتفسير اللحظة الراهنة باعتبارها نتاجًا لتراكم لحظات سابقة) . والمؤرخ بهذا المعنى يقرأ الماضى والحاضر معًا : فهو يقرأ الحاضر فى الماضى، ويستضىء بالحاضر فى فهم الماضى . وهذا هو ما يفعله الدكتور عبد الوهاب أحمد فى كتابه عن الشخصيتين المصرية والسودانية، وهويقع فى ثلاثمائة وعشرين صفحة، ويتناول الفصل الأول منه " الجذور التاريخية للعلاقات المصرية- السودانية"، ويتناول الفصل الثانى " الأبعاد التاريخية للشخصية المصرية"، ويتناول الفصل الثالث "الأبعاد التاريخية للشخصية السودانية"، أما الفصل الربع والأخير فيتناول "إيجابيات وسلبيات الشخصيتين المصرية والسودانية" .

●●●

ومما يزيد من أهمية هذا الكتاب أن صاحبه سودانى الجنسية، فضلاً عن كونه أستاذًا فى التاريخ . حقًا إن أهمية الكتب لا تقاس بجنسية أصحابها، ولكن الأمر هنا مختلف : ذلك أننا قد تعودنا أن نسمع عن العلاقات المصرية السودانية من خلال الكتابات المصرية التى غلب على أكثرها الطابع الصحفى والسياسى والدعائى الذى يرفع الشعارات أو توجهه العواطف والأهواء . وأظن أنه قد آن الأوان لنسمع صوت الآخر، خاصة إذا كان صوتًا لا توجهه العواطف أو الحساسيات، وليس مدفوعًا بأغراض سياسية، وإنما يوجهه الصالح العام للبلدين الشقيقين حقًا، ويسعى إلى تأسيس هذا الصالح العام على دراسة علمية جادة تحاول فهم الشخصيتين المصرية والسودانية فى ضوء الجذور والثوابت والتحولات التاريخية والاجتماعية لكل منهما . وربما يكون هذا هو السبب فى أن الجانب الخاص بالجذور التاريخية والحضارية للعلاقات المصرية السودانية قد تضخم نسبيًا فى هذا الكتاب. وربما تتبدى أيضًا أهمية الكتاب فى المرحلة الراهنة بوجه خاص ؛ لأنها المرحلة التى بدا يلوح فيها التطلع إلى تجاوز الوضع الشائك فى العلاقات المصرية السودانية الذى كاد أن يترسخ بفعل وقائع تاريخية وسياسية متراكمة .

وبوجه عام يمكن القول إن هذا الكتاب يمثل محاولة علمية جادة لرصد ملامح الشخصيتين المصرية والسودانية بالكشف عن الثوابت فيهما، بفعل التاريخ والجغرافيا والعلاقات الاقتصادية والثقافية بين البلدين على مر العصور : فالعلاقات بين مصر والسودان قديمة قدم التاريخ، والأحداث التى مرت بها مصر قد انعكست على السودان بصورة مباشرة سلبًا كان ذلك أم إيجابًا : فقد كانت مصر دائمًا مصدر التأثير الدينى والثقافى على السودان، ليس فقط لأنها البوابة الرئيسية لدخول المسيحية اليعقوبية ومن بعدها الإسلام إلى السودان، بل لأنها كانت من قبل مصدر العقائد والأديان التى انتقلت إلى بلاد كوش السودانية وآمن بها ملوك وشعوب هذه البلاد، حتى إنه لم يكن هناك إله يعبد فى مصر إلا وكان يعبد فى بلاد كوش . وفضلاً عن ذلك كانت هناك حركة تجارية متبادلة على مر العصور، وقد استغل المصريون القدماء مناجم الذهب الواقعة فى الصحراء الشرقية لبلاد النوبة . كما كان النوبيون يعملون فى الجيش والشرطة فى مصر القديمة، ودافعوا مع المصريين ضد الهكسوس، فكانت بلاد النوبة جزءًا من المملكة المصرية (التى اعتبرت حدود الدولة المصرية حتى الشلال الثانى)، مما جعل هذه البلاد تذوب فى مصر القديمة إلى حد أفقدها شخصيتها الثقافية والحضارية الخاصة، حتى إنه ليقال أن تاريخ النوبة ما هو إلا تاريخ لاتصالها وانعزالها عن مصر .

٣- إن هذا التداخل الشديد فى تكوين الشخصيتين المصرية والسودانية هو ما يفسر لنا الاختلاف حول أصل المصريين القدماء أنفسهم : فقيل أنهم زنوج استقروا أولاً فى السودان على شواطئ النيل الأوسط، ثم نزحوا تدريجيًا مع النهر نحو البحر . وقيل أن النوبيين أصلهم مصريون حملوا الحضارة والعقائد المصرية إلى الجنوب، وقيل أنهم جالية جنوبية نزحت إلى شمال الوادى . غير أن الرأى المؤكد هو أنهما ينتسبان إلى أصل واحد ، وأن جنوب مصر الأقرب فى طبيعته فترات حكم بلاد كوش لمصر - بل فترة حضارة بلاد كوش فى مجملها - تعد ضئيلة إذا ما قورنت بعمر الحضارة المصرية القديمة، وهو ما يعنى أن تأثير شمال الوادى (ممثلاً فى مصر) على جنوبه (ممثلاً فى السودان) ظل هو التأثير الأقوى . إلا أن هذا لا ينفى أن حضارة جنوب الوادى - وخاصة حضارة بلاد كوش - كانت وليدة بيئتها ومتأثرة بطبيعتها الجغرافية، وكانت تنزع دائمًا إلى تأكيد أصلها الزنجى ؛ ومن ثم إلى الكشف عن ارتباط السودان بالعمق الأفريقى . إن هذا الجذر الأفريقى/الزنجى ماثل فى وعى الشخصية السودانية تأكيدًا لخصوصيتها، وهو وعى يعبر عن نفسه فى الإبداع الأدبى كما جاء فى قصيدة الشاعر السودانى المبدع محمد الفيتورى التى تحمل عنوان " أنا زنجى"، والتى اقتبس الدكتور عبد الوهاب أحمد بعضًا من أبياتها التالية :

قلها لا تجبن
قلها فى وجه البشرية

تعرضه لهجرات الكثير من القبائل المتباينة فى أصولها التى تتراوح بين العنصر الزنجى والعنصر العربى - كل ذلك كان له تأثير واضح على التركيبة العرقية المعقدة فى السودان، وإلى إلحاح التساؤل عن مفهوم الهوية السودانية وعن معنى القومية فى السودان . ومع ذلك، فإن هذا الطابع الذى ميز السودان لا يخلو من قيمة إيجابية يمكن أن نستشفها هنا : فلا شك أن هذا الطابع قد عمل على تحرر الشخصية السودانية من بعض آفات الشخصية المصرية مثل : تقديس السلطة المركزية، وبيروقراطية الإدارة، وما استتبع ذلك من تدهور لحق بالشخصية المصرية مؤخرًا ممثلاً فى تسلط الموظف وتملقه للسلطة الأعلى فى نفس الوقت، وعدم الصراحة أو المجاهرة بالرأى خاصة فى مجال السياسة ... إلخ . وربما يتبدى هذا الأمر لمن يعرف السودان عن قرب فى ولع السودانيين (وخاصة الشباب منهم) بالكلام فى السياسة والتعلق بالحياة الحزبية التعددية فى حماس منقطع النظير رغم الظروف الاقتصادية الطاحنة فى السودان ؛ وهى ظاهرة صحية فى حد ذاتها إذا تخلصت من طابعها الكلامى والخطابى، وبلغت مرحلة النضج السياسى الذى يهدف إلى التأثير والفاعلية فى مجال الواقع . كما يمكن القول إن التباين أو التنوع العرقى والثقافى والاجتماعى فى الشخصية السودانية ليس شرًا فى حد ذاته، بل يمكن أن يتحول إلى قيمة إيجابية إذا صدقت النوايا بالعمل على الحفاظ على وحدة السودان من خلال تحقيق مبدأ " الوحدة فى التنوع" الذى يمكن أن يصب فى مصلحة الجميع .

٦- رغم ما بين الشخصيتين المصرية والسودانية من إلف وتقارب فى الطباع، إلا أن الشخصية السودانية تتميز بحساسية مفرطة ومعقدة إزاء الشخصية المصرية، وهذا الأمر يجب وضعه دائمًا فى الاعتبار، والعمل على مداوته وتجاوزه حين النظر فى العلاقات المصرية السودانية وأخذها مأخذ الجد . إن السودانيين - كما يلاحظ الدكتور عبد الوهاب أحمد " أكثر حساسية تجاه نقد الآخرين لا سيما عندما يكون الناقد مصريًا " (ص. ٢٨٩) . غير أن هناك عوامل موضوعية تبرر هذه الحساسية السودانية، وهى عوامل يمكن أن نستشفها من هذا الكتاب الذى نعرض له، ومن غيره . ولعل أهم هذه العوامل أن مصر فى العصر الحديث - منذ عصر محمد على وحتى فترة الثورة - ظلت تنظر